٥ ـ المجنـــون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ثم إن (نابغة القرن العشرين) استخفّه الطربُ لذكر صواحبه وجيلاته من قاطنة الى رَبّاب ؛ ومن طبع المجنون أنه إذا كذَبَ صدّق نفسَه ، فان قوةَ الضبط فى عقله إما معدومةٌ وإما مختلّة ، وكلُّ وجهٍ تَخَيَّل منه خيالا فهو وجهٌ من وجوه العلم عنده إذ كان عالَمُه أكثرهُ فى داخله لا فى العالَم ، فاذا توهم أو أحسّ أوشَعَر فانما يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء ، فليس يحتمل عقلُه إلا فكرةً واحدةً تمضى منفردةً بنفسها مستقلةً بمعناها كأنها قَدَرٌ غالب على جميع أفكاره الأخرى ، فلا شأن لها بالواقع ولا شأن للواقع بها ، وإنما هى تحقق معناها كما تخطرُ له لا كما تتمثّل فيما حوله . فبين كل مجنون وبين ما حوله دماغُه المُتَدَجّى بالغيوم العقلية ، لا تزال تَمْرِضُ له القَيمةُ بعد القيمة من اختلال بعض المراكز العصبية فيه ، وفسادِ أعمالها بهذا الاختلال ، وقيام الطبيعة فيها على هذا الفساد .

ومن ذلك تنقلب الكلمةُ من الكلام وإنها لحادثةٌ تامةٌ فى عقل المجنون كالقصة الواقعة لها زمانٌ ومكانٌ وبدءٌ ونهاية ، لا يخامره فيها الشك ، ولا يعتريها التكذيب ؛ وكيف وهى قائمة فى ذهنه من وراء سمعه وبصره قيامَ الحقيقة فى الأبصار والأسماع ؟

ولحواس المجنون جهتان فى العمل لأنها بين كونين أحدهما الكونُ الخَرِبُ الذى فى دماغه ؛ وفى هذا يقول (نابغة القرن العشرين) : إن فى داخل عينيه منظارا يرى به الأشياءَ فى غير حقائقها ، أى فى حقائقها

وحدثنا الدكتور محمد الرافعى قال : إن فى دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغة كنابغة القرن العشرين ذُكرت أمامه قيصرة روسيا وخَبَرُ مقتلها ، فأحفظَهُ هذا وأرْمَضَه وقال يا قوم ! كذبوا عليها وعلىّ . . . فسأله الدكتور : وكيف ذلك ؟

قال : كان من خبر القيصرة أنها رأتنى فأحبتنى وعلمتْ من كل وجه يمكن أن يعلم منه قلبُها أنى أنا رجلُها لا القيصر . فازالت بعدها تُناكِدُ القيصر وتَلْتَوِى عليه ولا تصالح له فى شىء حتى يئس منها فطلقها . فحملت كنوزَها وحلاها ولجأت الى حبيبها . ثم تبعتها نفسُ القيصر ولم يُطق العيش بعدها فانتحر . . . . ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوز فأخفاها هو فى مكان حريز لا يعلمه إلا هو ؛ ثم إنه هو لا يصل الى هذا المكان الذى أحرزها فيه إلا إذا نام ... كيلا يراه أحد من الشيوعيين فيتعقبَه فيعلم مقرها . ولهذا كان من الحكمة أن ينسى المكان إذا استيقظ . . . فقد يزلُّ مرة فيخبر به أو يغلبه الشوق مرة على عقله . . . فيذهب اليه فعسى أن يراه من يَمُّ بذلك فتفتضح الحبيبة وتؤخذ منه ، قال : وإن القيصرة هى تحتاط أيضاً مثل ذلك فتراسله كل يوم باللاسلكى رسائلَ تقع من الجو فى دماغه فيقرؤها وحده . وإن أخوف ما يخافه أن يغلبها جنون الحب يوماً فتطيش طيش المرأة فتزوره فى هذا المارستان ..... فقد تُقتل إذا رآها الشيوعيون

قال الدكتور : وهناك (نابغة) آخر ثبت فى ذهنه أن امرأة من أجمل النساء قد استهامتْ به وأنها مُبتَلاةٌ فى حبها إياه بجنون الغيرة ، وقد تناهتْ فيه حتى إنها لتقتل نفسَها إذا علمت أن لصاحبها هوى فى امرأة أخرى . وخبّلته هذه الفكرة فاعتقد أن حبيبته من جنون غيرتها واقعة بين السلامة والتلف ؛ ثم توهم ذاتَ يوم أن واشياً قد أعلمها أن النساءَ افتتنّ به ؛ فطار سوابها فهى آتيةٌ إليه فى المارستان لتوبخَه وتشفى غيظَها منه ثم تنتحر أمام عينيه . وأدار (النابغة) الفكر فى إقناعها لتعلمَ أنه لم يَخُنها بالغيب . . . . فلم يهتد إلى مَقْنَع تَسْتَيْقِنُ به المرأةُ أن لا أرَبَ للنساء فيه إلا أنْ . . . . ففعل وَجَبَّ خصيتيه بيده ليقدمهما برهاناً أنه لها وحدها . . . :

* * *

قلنا : وطرب نابغة القرن العشرين ، لذكر صواحبه وجيلاته فجعل يترنم بهذا الشعر :

قالوا جُنِنتَ بمن تهوى فقلتُ لهم
ما لذةُ العيش إلا للمجـــانين

فقال المجنون الآخر : « مما حفظناه » : ما لذة « الخبز » إلا للمجانين . . . .

فضحك (النابغة) وقال : ما أسخفك من أحمق . إذا كان هذا هو المعنى فقل ما لذة (الكمك) . ألم أقل لكم إن هذا الأبله لو تهجأ كلمة خبز لقال إنها ل . ح . م . ولو تهجأ كلمة لحم لقال ف . و . ل . . . .

إنه طفل عمره ثلاثون سنة وفيه دائماً غضب الطفل ونزقه وحماقته ، وفيه كذلك سرور الطفل وطيشه وأحلامه ؛ غير أنه ليس فيه عقل الطفل . وهو من الضعف وشدة الحاجة إلى العناية في حياطته وسياسته والسير به كطفل صغير — بحيث يخيل إليّ أحياناً أنني أمه . . . . . .

قلنا : وتنسى في هذه الحالة أنك رجل ؟

قال : وأنتم كذلك تتهمونني بالنسيان وهو شرعاً جهة ملزمة للحكم بالجنون . فما النسيان إلا الكلمة الأخرى لمعنى ضعف العقل ؛ وضعف العقل هو اللفظ الآخر لمعنى جنوني ؛ وقد أعلمتكم ما أكره من الكلام .

قلت : لا ، إن النسيان لا يكون منك نسياناً بمعناه في المجانين ، بل بمعناه فيك أنت من تواثب الأفكار النابغة وتزاحمها في توارد ها على العقل . فإذا تواثبت وتزاحمت كان أمرها إلى أن ينسي بعضها بعضا فلا ينطلق منها إلا القوي النابغ حقّ نبوغه ، فيجيء كالمنقطع مما قبله ، فيحسب ذلك نسياناً وما هو به . وقد تصطلح الافكار في هذه المعركة الذهنية إذا كان النابغة مسروراً محبوراً يرقص طرباً . . . . فيكون أمرها إلى أن تجيء كلها معاً على اختلاف معانيها وتناقضها ؛ فيحسب ذلك غيرك من الذهول عند من يجهل العلة النبوغية ؛ وعذره جهل هذه العلة وهي في دلالة العقل ليست نسياناً ولا ذهولاً

قال : فأعلمني كيف نسيان المجانين فقد خفي عليّ أن أدرك هذا الأمر العجيب فيهم ، ولست أدري كيف يقوم بهم ما استدنى لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقر وحصل في عقولهم ؟

قلت : لا يكون النسيان تهمةً بالجنون إلا في أحوال ثلاث جاءت بكلها الرواية الصحيحة المحفوظة :

فأما الأولى فما يُروى عن رجل كان سرياً غنياً وعُمِّر حتى أدركه الخرف ؛ فجاءه كاتبه يوماً يستعينه على تجهيز أمه وقد ماتت فدفع إلى غلام له دنانير يشتري بها كفناً ودنانير أخرى يتصدق بها على القبر ؛ ثم قال لغلام آخر : إمض إلى صاحبنا وغاسل موتانا فلان فادْعُهُ يغسلها . قال الكاتب : فاستحييتُ منه وقلت ياسيدي ابعث خلف فلانة وهي جارة لنا تغسلها . قال يا فلان ما تدع عقلك في حزن ولا فرح . كيف ندخل عليها من لا تعرفه ؟

قال الكاتب : نعم تأذَنُ بذلك . قال لا والله ما يغسلها إلا فلان

فضاق الكاتب بهذا الحمق وقال : ياسيدي كيف يغسل رجلٌ امرأة ؟

قال : وإنما أمك امرأة . . ؟ والله لقد أنسيت

وأما الحالة الثانية فما يُروى عن رجل كان نائماً في ليلة باردة فخرجت يدهُ من الفراش فبردت ، فأدناها إلى جسده وهو نائم فأحسّ بردها فأيقظته ، فانتبه فزعاً فقبض عليها بيده الأخرى وصاح : اللصوص . اللصوص . . . هذا اللص قد قبضتُ عليه أدركوني لئلا تكون في يده حديدة يضربني بها ، فجاءوا بالسراج فوجدوه قابضاً بيده على يده وقد نسي أنها يدُه . . .

وأما الثالثة فهي رواية عن رجل قد ورث نصفَ دار ، ففكر طويلا كيف تخلص الدار كلها له ثم اهتدى الى الوسيلة ؛ فذهب الى رجل وقال له : أريد أن أبيعك حصتي من الدار وأشتري بثمنها النصف الباقي لتصير الدار كلها لي . . .

* * *

قال (النابغة) لعمري إن هذا لهو الجنون ، وما يذكر مع هؤلاء بجنون المتن ولا غيره . . .

فقال الآخر : تالله لولا أن (نابغة القرن العشرين) يدفع نفسه عن الجنون لجاء في الجنون بما يُذهل العقول . . .

ثم نظر فاذا النابغة يتحفز له . . . ؛ فأسرع يقول : « مما حفظناه » كُنْ حَذِراً كأنك غِرٌّ ، وكن ذاكراً كأنك ناس . فهذا هو نسيان نابغة القرن العشرين ، نسيانُ حكماء لا نسيانُ مجانين

قال (النابغة) ولكن قد فسد قول الشاعر ، ما لذة العيش إلا للمجانين ؛ فما بقيت مع الجنون لذة

قلت : إن الشاعر لا يريد المجانين الذين هم مجانين بالمرض وإنما يريد العشاق المجانين بالجمال ؛ وجنون العاشق في هذا الباب

كعيوب العظماء من أهل الفن ، وهى عيوب تدافع عن نفسها بحسنات العظمة فليست كغيرها من العيوب

قال : فيجب أن أصنع بيتاً آخر يفسّر ذلك الشعر ليستقيم لى التمثل به . ثم فكّر وهمهم ، ثم كتب فى ورقة ثم طواها وقال : اصنع أنت أولُ ، وسأتثمن س . ع . على شعرى ودفع إليه الورقة

فنظرت وقلتُ : يجب أن يكون الشعر هكذا :

قالوا جُننت بمن تهوى فقلتُ لهم
ما لذة العيش إلا للمجانين
العقلُ إن حَكَمَ العُشّاق أثقلُ من
فقرٍ تحكّم فى رزقِ المجانين

ونشر س . ع . الورقة فاذا فيها :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم
ما لذة العيش إلا للمجانين
إن العيوب عن المجنون دافعةٌ
بأنه نابغ فى القرن عشرين ...

وضحكنا جميعاً ؛ فقال النابغة : أبعدك الله يا س . ع . إن من من التثمن المجنون على سرّ وقال له اكتمه فكأنما قال له انشره

* * *

ثم قال : وددتُ والله أن يكون س . ع هذا نابغة ، ولكنى سأجعله نابغة ، فقد صار له علىّ حقُّ الصديق وهو حق لا أضيّعه ولا أخِلُّ به . فاذا احتجت يا س . ع إلى خطاب رنان تلقيه فى حفل عظيم ، أو قصيدة تمدح بها وزير المعارف ، فالجأ إلىّ فانى ملجأ لك . ومتى انتحلت شعرى كنت عند الناس التنبى أو البحترى أو ابن الرومى ، فان هؤلاء القدامى لم ينفعهم إلا أنى لم أكن فيهم ، ولما لم أكن فيهم أعجبوا الناس إذ أنى لم أكن فيهم

قلنا فما حكمك عليهم فى الأدب ؟

قال : إذا حكمتُ عليهم فقد جعلت نفسى بينهم ، فمن الطبيعى ألا يعجبنى منهم أحد . إن « نابغة القرن العشرين » لا يقول لمعنى هذا أحسن فانه هو فوق الأحسن ، ولا يقول « نابغة هذا الشهر فانه هو فوق الأشهر

قلت : كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهد العظيم الذى لا يقول فى حُسن هذا أحسنُ لأنه فوق الشهوة ، ولا فى نعيم هذا أطيبُ لأنه فوق الطمع ، ولا فى مال هذا أكثرُ لأنه فوق الحرص . وأحسبك لو كنت ترعى غنماً لكنت الحقيق فى عصرنا بقول تلك الراعية الزاهدة : أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلح بين الذئب والغنم

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : حكى عن بعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال فى نفسه : يارب . مَن زوجتى فى الجنة ؟ فأُرِىَ فى منامه ثلاث ليال أنها جارية سوداء فى أرض كذا . فجاء تلك الأرض فسأل عن الجارية ، فقال له رجل ما هذا ؟ تسأل عن جارية سوداء مجنونة كانت لى فأعتقتها ؟ قال وماذا رأيتم من جنونها ؟ قال : كانت تصوم النهار فاذا أعطيناها فطورها تصدقت به ، وكانت لا تهدأ الليل ولا تنام فضجرنا منها

قال : فأين هى ؟ قال ترعى غنماً للقوم فى الصحراء

فذهب إلى الصحراء فاذا هى قائمة فى صلاتها ، ونظر إلى الغنم فاذا ذئبٌ يدلها على المرعى وذئبٌ يسوقها . فلما فرغت من صلاتها سلم عليها فأنبأته أنه زوجها فى الجنة وأنبأها أنه بُشّر بها ؛ ثم سألها ما هذه الذئاب مع الأغنام ؟ قالت : نعم أصلحتُ شأنى بينى وبينه فأصلح بين الذئب والغنم

قال (النابغة) : هذا كذب لأنه عجيب ، وهو عجيب لأنه كذب

قلت : وأى عجيب فى هذا ؟ إن الذئب والشاة ، والأسد والغزال ، والثعبان والعصفور ، وكل آكل وما كول من الأحياء ، لو هى دخلت فى دائرة الصلاة الحقيقية لانتظمت كلها صفاً واحداً يركع ويسجد . فهذه الجارية نشرت رُوحَ الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئن بالايمان ، فوقع الذئب منها فى دائرة مغناطيسية ، فسُلِبَ وحشيته ورجع مُسَخَّراً لفكرة الصلاح والخير إذ تجانست فيه الحياةُ بما حولها ، وانسجم النوعُ والنوعُ فى حركة متجاوبة انسجامَ الرجل المغناطيسى هو ومن ينوّمه فى إرادة واحدة وفكرة واحدة

قال (النابغة) : فاذا دخل الذئب مسجداً يَرْتَجُّ بالمصلّين ، أتُراه يَصُفُّ أربعتَه ويقف بينهم للصلاة ، أم يصلى صلاته الذئبية فى لحومهم ؟

قلت : وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة فيخرجون بها

من النفس إلى الكون ، ومن الزمن إلى الأبد ، ومن الأسباب إلى مُسبِّبها ، ومما فى القلب إلى ما فوق القلب ؟ إن هؤلاء جميعاً يصلون بجوارحهم وبينهم وبين أرواحهم طولُ الدنيا وعرضها ؛ وما منهم إلا من يتصل فكرُه بما يغلب عليه كما يتصل فكر القص بيده ، وفكر العاشق بعينه ، وفكر الطفل بمعدته . . . فاسمها عندهم الصلاة وحقيقتها عند الله كما ترى

قال (النابغة) ولكنه ذئب من طبيعته أن يأكل الشاة لا أن يرعاها ، فلا أفهم شيئاً .

وقال الآخر : «مما حفظناه» رتع الذئب فى الغنم ، ولم يقولوا صلى الذئب فى الغنم ، فلا أفهم شيئاً .

قلت : سأزيدكما عدماً فهم ... إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة متصل بالله ، وليس فيه شىء من طباعها الانسانية ولا ظلّ من ظلال الدنيا ؛ وقد تجلى فيه سرُّ الحياة ، وهو السر الذى لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتهى ولا يطمع فى شىء ولا يحرز شيئاً ، وإنما طبيعته أشواقه الكونية واتصالُه بنفحات القوة الأزلية المسخّرة للوجود كله . فانتشرت هذه الموجة الكهربائية الأثيرية حول الجارية من قلبها ، وجاء الذئب فالتجّ فيها وغمرته الروحانية الغالبة فاذا هو يفتح عينه على كون غريب قد تجلّى السلامُ عليه ، فليس فيه إلا قوة آمرة أمرها بائتلاف كل شىء مع كل شىء ، واجتماع المتنافرين فى حالة معرفة لا فى حالة إنكار . فصار الذئب مستيقظاً ، ولكنه فى روح النوم ، وشُلّت فيه الذئبيةُ الطبيعية فاذا هو يحمل الأنياب والأظافر وقد أُنسِيَ استعمالها ، وبقيت حركتُه الحيوانيةُ ولكن تعطلت بواعثها فبطل معناها

ومن كل ذلك اختفى الذئب الذى هو فى الذئب ، وبقى الحيوان حيّاً ككل الأحياء ، فناسب الشاة وفزع اليها إذ لم تعد العلاقة بينهما علاقةَ جسم الآكل بجسم الأكيلة ، بل علاقة الروح الحى بروح حى مثله [1]

* * *

قال (النابغة) : أما أنا فقد فهمت ولكن هذا المجنون لم يفهم . أكتب يا س . ع : جلس نابغة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعداد ولا تمكن ، وبدون كتب ألبتة ... وكان هذا أجمع لرأيه وأذهن له وأدعى لأن يتوفّر على الاملاء بكل مواهبه العقلية ؛ ولما أن فكر النابغة وأعطى النظر حقه وجمع فى عقله الفذّ جزالةَ الرأى إلى قوة التفنن والابتكار ، قال مرتجلا : إن فلسفة الذئب والشاة حين لم يأكلها ولم تنطحه ، هى بالنص وبالحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين ...

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة

فامتعض الآخر وقال : « مما حفظناه » :

وبات يقدح طول الليل فكرته وفسر الماء بعد الجهد بالماء

فقال (النابغة) : ويلك يا أبله ! أما والله لو كنت تفطويه أو سيبويه لما كنت عندى إلا سَحشوَيه أو يَفْلوَيه . . .

لقد كنت أرى الكلام فى تلك الفلسفة طريقاً نزهاً جميلا حفته الأشجار والأزهار عن جانبيه ، واندفعت فى سوائه (تمثيلاتُ) الأفكار خاطفة كالبرق . فلما تكلمت أنت انتهينا من سخافتك إلى طريق حجرى تقمقع فيه عربات النقل تجرها البغال البطيئة

فقال الآخر وهو يعتذر إليه : ما أردت والله مساءتك ولو أردتها لقلت وفسر الماء بعد الجهد بالسبرتو . . . فهذا هو الخطأ ، أما تفسير الماء بعد الجهد بالماء فهو صحيح

قال النابغة : ولكنه تفسير مُفرط السقوط كتفسير المجانين ، فهو يقول إنى مجنون

قلت : كلا ، إن تفسير المجانين يكون على غير هذا الوجه

إلى الليل ، فلما استقل أهله نوماً انسل من حجرته وهبط الحديقة وجاء إلى الذئب فوثب هذا يتحفز لافتراسه ؛ ولكن الطفل لم يدرك شيئا من معنى هذه الوحشية ، ولم يكن فى نفسه إلا أن الذئب كالكلب فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك . ومضى إلى الوحش مسروراً مطمئناً فتناوله من شعره وجعل يمسحه بيديه الصغيرتين ويحبثه ، والذئب مدهوش ذاهل ، ثم سكن واستأنس اليه كأنه مع جرو من أجرائه لا مع طفل آدمى . وجذبه الطفل من رقبته حتى أضجعه ثم اتخذه وسادة ووضع رأسه على ظهره ونام ... وافتقدت الطفل مربيته فلم تجده فى فراشه ، فنبهت أهله وذهبوا يبحثون عنه فى غرف الدار ثم نزلوا إلى الحديقة فبصروا به نائما ورأسه على الذئب . وخافوا إزعاج الوحش فرموه بالرصاص فتناوله وقام الطفل يبكى على صديقه الوفى ...

هذا هو أثر الروح للطبيعة الماشية على يقينها ، ولكن أين مثل هذا اليقين فى مثل هذه الحالة ؟ وكل مروضى الوحوش يعلمون أن أول وآخر ما يخيفونها به هو نزع الخوف من أنفسهم ، وان هذا هو وحده سلاح النفس فى النفس

(١) روت الصحف فى هذه الأيام قصة حاكم انجليزى كان قد اقتنص ذئبا هنغاريا وشده فى سلسلة وجعله فى حديقة داره إلى أن يرى فيه رأيا . وكان للحاكم طفل صغير أعجبه الذئب ومنظره الوحشى فتربص